العرب
الأربعاء 2020/01/08
السنة 42 العدد 11580

الأخطر من كلام حسن نصرالله

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

هناك أخطر من كلام حسن نصرالله الأمين العام لـ"حزب الله" على لبنان، وهو كلام قيل من بيروت بالذات عن إخراج القوات الأميركية من كلّ المنطقة انتقاما لتصفية الولايات المتحدة الجنرال قاسم سليماني. الأخطر هو لامبالاة القيّمين على "عهد حزب الله" في مواجهة التدهور الاقتصادي. ليس في لبنان من يريد تحمّل مسؤولياته واستيعاب معنى الأزمة الاقتصادية العميقة وتداعياتها، بما في ذلك احتجاز المصارف لأموال اللبنانيين والعرب والأجانب الذين أودعوا مبالغ كبيرة أو صغيرة فيها. إنّه اعتداء لا سابق له على لبنان أوّلا وعلى حقوق الناس، كلّ الناس، وذلك منذ ما قبل الاستقلال. يعود ذلك إلى أنّ المصارف، والثقة بها، تشكّل أحد الأعمدة التي تؤمّنُ بقاء البلد على قيد الحياة.

ما يدلّ على حجم اللامبالاة تجاه الوضع اللبناني الخطير الإتيان بشخص مثل حسّان دياب لا يمتلك أيّ مؤهلات من أيّ نوع لتشكيل حكومة جديدة. لعلّ أوّل ما تحتاجه هذه الحكومة أشخاصا مستقلّين يمتلكون كفاءة في المجال الذي يديرونه. كذلك، تحتاج مثل هذه الحكومة إلى رئيس يوفّر غطاء سياسيا للبنان الذي عزل نفسه عن محيطه العربي. معنى ذلك أن أي رئيس للحكومة الجديدة في لبنان يجب أن يمتلك شبكة علاقات عربية ودولية، إضافة إلى مدخل إلى واشنطن. هل يكفي أن يكون حسّان دياب شغل موقع نائب رئيس الجامعة الأميركية في بيروت حتّى يصبح في وضع يمكّنه من زيارة أيّ عاصمة عربية أو أوروبية، أو أن تقبل واشنطن باستقباله رسميا وليس كمجرّد زائر يحضر أحد المؤتمرات كما حال جبران باسيل وزير الخارجية في الحكومة المستقيلة وصهر رئيس الجمهورية.

عاقب لبنان نفسه عندما فات كبار المسؤولين أن الانضمام إلى «محور الممانعة» يعني بين ما يعنيه تعرض لبنان لقصاص قد يكون عادلا كما قد لا يكون، لكنه قصاص فعلي يطال مستقبل كل لبناني

من الطبيعي أن يقول الأمين العام لـ"حزب الله" الكلام الذي قاله في ضوء العلاقة الخاصة التي تربطه بإيران عموما وبقاسم سليماني خصوصا من جهة، ووضع الحزب على خارطة لبنان والمنطقة من جهة أخرى. لم ينكر نصرالله أن علاقة قويّة تربطه بقائد "فيلق القدس" في "الحرس الثوري" الإيراني. كذلك، لم يخف يوما أنّه "جندي" في جيش الوليّ الفقيه أي في جيش علي خامنئي الذي يشغل موقع "المرشد" في "الجمهورية الإسلامية".

ما لا يخفى على أحد أن "حزب الله" ليس سوى لواء في "الحرس الثوري" الإيراني. وعندما يزور سليماني بيروت وأي منطقة في لبنان، إنّما يأتي لتفقد قوات صديقة تعمل ضمن الإطار نفسه الذي يعمل فيه "فيلق القدس". من هنا، ليس مستغربا أن يتحدّث حسن نصرالله عن مفهومه لـ"القصاص العادل" ردّا على اغتيال قاسم سليماني وأبومهدي المهندس نائب قائد "الحشد الشعبي" في العراق. لا يأخذ هذا المفهوم، الذي يدعو إلى "إخراج القوات الأميركية من كلّ منطقتنا"، في الاعتبار أي مصلحة لبنانية. يبقى الاقتصاد اللبناني وأرزاق اللبنانيين آخر همّ لدى "حزب الله". كلّ ما هناك أن الأمين العام لـ"حزب الله" ينفّذ أجندة إيرانية ولا شيء آخر. ينفّذ هذه الأجندة بغض النظر عن طبيعة العلاقة القائمة بين ميليشيا حزبه، أو الحزب – الميليشيا، و"فيلق القدس" وما إذا كانت العلاقة مجرّد تنسيق بين طرفين تابعين لإيران يشاركان في حروب عدّة تدور في المنطقة، خصوصا في سوريا واليمن... أو أكثر من ذلك بكثير.

المؤسف أن "عهد حزب الله" في لبنان استحقّ أكثر هذه التسمية بعد اغتيال قاسم سليماني وأبومهدي المهندس. لم يظهر كبار المسؤولين اللبنانيين، باستثناء سعد الحريري رئيس حكومة تصريف الأعمال، أي شعور بالمسؤولية، أقلّه من أجل حماية لبنان وتمكينه من تجاوز المرحلة الصعبة المصيرية التي يمرّ فيها. لم يكن هناك أي استيعاب لواقع يتمثل في أنّ لا مصلحة، من أيّ نوع، للبنان في الظهور في مظهر التابع لإيران، خصوصا أن المواجهة هي بين الولايات المتّحدة و"الجمهورية الإسلامية". يستطيع أي لبناني أن يسأل نفسه ما الذي فعلته إيران للبلد غير تصدير السلاح والغرائز المذهبية إليه، وما الذي فعلته الولايات المتحدة التي يكفي أنّها بنت الجامعة الأميركية في بيروت.

في النهاية، من غير الولايات المتحدة أو المؤسسات المالية الدولية التي تؤثّر عليها تأثيرا كبيرا يستطيع مساعدة الاقتصاد اللبناني والمصارف اللبنانية التي ستفقد كلّ أهميتها ودورها في حال بقي الوضع الراهن على حاله؟

ما تقوم به السلطة اللبنانية، على أعلى المستويات، يتناقض كلّيا مع مصلحة لبنان المقبل على انهيار كبير، انهيار ثمّة من يعتقد، عن حقّ، أنّه حصل فعلا في اليوم الذي توقّفت فيه المصارف عن توفير العملة اللبنانية والعملات الأجنبية لعملائها.

يحصل هذا كلّه من دون أن يوجد من يسأل عن قيمة الوقت الذي ضاع، أو عن الفائدة من الإتيان بشخص لا وزن له ولا خبرة ولا علاقات لتشكيل حكومة. لا يوجد من يسأل ما الفائدة من الدخول في بازار وزاري مبني على محاصصة من نوع جديد بين قياديين في مجموعة معينة، هي "التيّار الوطني الحر" والثنائي الشيعي.

هل في استطاعة حكومة تشكّل عن طريق هذه المجموعة وتعتمد المحاصصة في ما بينها الإقدام على أيّ خطوة تؤدي إلى تغيير في الموقف الأميركي من لبنان أو إلى إعادة مدّ الجسور مع الدول العربية القادرة على توفير مساعدات للبلد كما كان يحصل في الماضي؟

حسنا، يمكن أن ننسى أميركا، كما يمكن أن ننسى أوروبا التي أبدت في الماضي استعدادا لمساعدة لبنان. كذلك يمكن أن ننسى الدول العربية القادرة، لكن ما لا يمكن نسيانه هو سؤال في غاية البساطة. من البديل من أميركا وأوروبا والدول العربية القادرة على مساعدة لبنان شرط أن يعود إلى ما كان عليه، أي إلى دولة عضو في جامعة الدول العربية وليس صوت إيران في اجتماعات مجلس الجامعة؟

في غياب أي جواب مقنع عن هذا السؤال، باستثناء كلام "حزب الله" عن الصين أو السوق العراقية، أي عن أوهام ليس إلّا، يبدو لبنان في طريقه إلى كارثة حقيقية. من كان في حاجة إلى تأكيد لذلك لم يعد في حاجة إلى مثل هذا التأكيد بعد الخطاب الأخير لحسن نصرالله وبعد تصرّفات رجالات "عهد حزب الله" من كبار المسؤولين إثر تصفية الأميركيين لقاسم سليماني وأبومهدي المهندس ورفع صور قائد "فيلق القدس" على طريق مطار بيروت. باختصار شديد عاقب لبنان نفسه عندما فات كبار المسؤولين أنّ الانضمام إلى "محور الممانعة" يعني بين ما يعنيه تعرّض لبنان لقصاص قد يكون عادلا كما قد لا يكون، لكنّه قصاص فعلي يطال مستقبل كل لبناني.

الخليج ما بعد سليماني

عمر علي البدوي
كاتب سعودي

بلا شك سيكون العالم أقل شرورا بمقتل زعيم ميليشيا فيلق القدس قاسم سليماني، لكنه لن ينجو من تبعات ذلك بشكل أو بآخر. مقتل سليماني يشبه مقتل أبوبكر البغدادي، من حيث التأثير على عنفوان التطرف والتقليل من فعاليته، ولكنه لا يعني نهايته بالضرورة.

بكل الأحوال، فإن منطقة الخليج العربي هي المنطقة الأكثر سخونة هذه الأيام بعد مقتل واحد من أكثر رموز الفوضى وتقويض الاستقرار ونشر الخراب في محيطه وداخل دوله، والأيام القليلة القادمة ستكون محمومة وموسومة بالترقب والتكهنات ودرجة عالية من الاستنفار.

يحمل سليماني على عاتقه سيرة غير حميدة من الإضرار بدول الخليج، في الكويت من خلال خلايا التجسس التي زرعها والأسلحة التي واظب على تهريبها إلى داخل البلد، وفي البحرين التي أشرف على تدريب المتطرفين فيها وعكف على تلقينهم مفردات التطرف والإرهاب، وانتهاء بالسعودية التي اتخذها مرمى أهدافه النهائية وثمرة مشروعه التخريبي. كل ذلك تبدد بفضل رد الفعل الخليجي الذي حصّن دوله وقاوم مشاريع الاختراق، ثم بذهاب ريح سليماني الذي قضى بطائرة درون أميركية.

سبقت الدرون الأميركية سليماني وكان على أهبة تنفيذ خطط لتصعيد "حملة العنف" ضد الولايات المتحدة وحلفائها في المنطقة، حسب ما اتفقت عليه المعلومات الاستخباراتية القطعية لدى الدول المعنية، بمعنى أن سليماني كان عازما على المواصلة في هذا المشوار العبثي، والواقع أن إيران كلها، بسليمانها ومرشدها وفيلقها وأذرعها وزبائنها لم تكن مستعدة للتوقف، وأن المواجهة كانت حتمية لوقف نزيف المنطقة وإعادة تركيب الهدوء والاستقرار في هياكلها وجغرافيتها.

ولذا كانت درجة التنسيق عالية على هذا الأساس بين واشنطن وبقية العواصم العربية المهمة في المنطقة، وكانت وتيرة المهاتفات مرتفعة بين قيادات أميركية من جهة، وبين العاهل السعودي ونائبه وولي عهد أبوظبي وسواهم، في محاولة لتطويق أي تبعات محتملة لمقتل سليماني واستثمار مستوى الضغط الحرج على طهران في دفعها للقبول بتسوية ضرورية تستهدف ثنيها عن قرار المواصلة في هذا الطريق الظلامي الذي سيورد المنطقة في مزالق ومهالك غامضة ومجهولة تضاف إلى ما ترزح فيه الآن من الفوضى وغياب الاستقرار.

في الوقت الذي كانت فيه الرياض وأبوظبي تدأب في لعب دورها المفيد من جهة ضمان استقرار المنطقة وتجنيبها أي أخطار محتملة، كانت قطر تتقلب على جمر خياراتها المتناقضة. تحسست الدوحة رقبتها خشية أن تستهدفها إيران وترد على مقتل زعيمها الميليشياوي بالهجوم على القواعد الأميركية الرابضة في قطر، في ظل تقارير عن أن طائرة الاغتيال انطلقت من قطر.

وفي حين هبطت طائرة وزير خارجية قطر الشيخ محمد بن عبدالرحمن آل ثاني في إيران لتبرئة النفس وتدارك رد فعل طهران، كانت فضائية الجزيرة القطرية تعمّق هذا التناقض بسردية تلمّع القائد الميليشياوي وتهاجم واشنطن وتحرض على قواعدها وتستضيف وجوها محبذة لدى مناصري ما يزعم بأنه محور المقاومة، في محاولة لامتصاص غضب الجماهير الموالية لإيران ورفع الحرج عن الدوحة وازدواجيتها، والتغطية على عجزها وتناقضها وورطتها في الرقص على حافة الهاوية.

المنطقة مقبلة على الكثير من التحولات والتبعات، ومحاولات الدول المركزية مستمرة لتطويق الأزمة وخفض التصعيد وتجنب أي آثار مدمرة سيدفع ثمنها الجميع، في ظل رصد تحركات إيرانية لاستهداف المصالح الأميركية في منطقة الخليج، ومنها قاعدة عين الأسد في العراق وقاعدة العديد في قطر، ومصالح الولايات المتحدة في الكويت.

وأشارت أحدث المعلومات الاستخبارية إلى أن إيران حركت عرباتها الصاروخية باتجاه هذه المواقع، وأن هذا التهديد رغم وجوده منذ أشهر إلا أنه تصاعد الآن، كما نقل المسؤولون الأميركيون للكونغرس قلق الشركاء الخليجيين من الانتقام الإيراني. وجاء بيان السعودية بشأن الأحداث في العراق تأكيدا على نظرة الرياض لأهمية التهدئة لتجنيب دول المنطقة وشعوبها مخاطر أي تصعيد كما ذكر وزير الدولة للشؤون الخارجية عادل الجبير.

كما شدد وزير الدولة للشؤون الخارجية في الإمارات أنور قرقاش على أنه وفي ظل التطورات الإقليمية المتسارعة لا بد من تغليب الحكمة والاتزان، وتغليب الحلول السياسية على المواجهة والتصعيد، وأن القضايا التي تواجهها المنطقة معقدة ومتراكمة وتعاني من فقدان الثقة بين الأطراف، والتعامل العقلاني يتطلب مقاربة هادئة وخالية من الانفعال.

المنطقة مقبلة على الكثير من التحولات والتبعات، ومحاولات الدول المركزية مستمرة لتطويق الأزمة وخفض التصعيد وتجنب أي آثار مدمرة سيدفع ثمنها الجميع، في ظل رصد تحركات إيرانية لاستهداف المصالح الأميركية في منطقة الخليج

وعلى نفس الأساس قامت البحرين بدعوة شعبها الذي كان أكثر المتضررين من انتهاكات سليماني، إلى الكف عن تبني أي موقف أو إبداء تصرف قد يزيد من توتر المنطقة ويدفع البلد إلى مسارات غير مضمونة، واستدعت الداخلية البحرينية عددا من مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي على خلفية منشوراتهم التي قد تعد مساسا بالأمن العام.

ولعل الكويت التي تقف على فوهة بركان أكثر من تحته الظروف المحتقنة على بذل الجهود للتهدئة وخفض التوتر في المنطقة، وتحصين البلاد من أي آثار منتظرة لهذا الصدام المتوقع، بالإضافة إلى واجباتها الخارجية، فهي معنية بمعالجة مواقف داخلية بدت مربكة وغير مفهومة من بعض النواب والناشطين المحليين في تبني أطروحات وآراء قد تزيد من توتر المشهد، وتقحم البلد في مآزق هي بغنى عنها، برجاء أن ترجح كفة الحكمة المعهودة من أميرها وفعالية أجهزتها تطويق المشهد ومنع أي انفلات محتمل.

نال سليماني عقوبة يستحقها وذاكرة المنطقة محملة بأعباء انتهاكاته ومرارات أفعاله الشائنة، أفعال لم يسلم منها بنو جلدته، بخسارة 1500 إيراني أرواحهم في غضون أسبوعين فقط من المظاهرات السلمية التي انطلقت في المدن والنواحي الإيرانية لتقول للحكومة كفى تورطا في الخارج وفشلا في الداخل، فضلا عن سيرة فاسدة اقترفها سليماني في الدول المحيطة، ولعل جولته الأخيرة قبل اغتياله بتنقله من بيروت إلى بغداد مرورا بدمشق، كانت مؤشرا على حجم اختراقه للواقع العربي وعبثه باستقرار الدول وتقويضه لأمن شعوبها وسيادة دولها ومصير أجيالها.

لقد دفع سليماني ثمن تجاوزه للخطوط الحمراء الأميركية، في ظل رئيس أميركي يخشى أن تلاحقه لعنة سلفه باراك أوباما الذي تغاضى عن تجاوزات إيران أكثر مما تحتمل دولة ذات كبرياء مثل الولايات المتحدة، وقد توهم سليماني والمنفعلون بكاريزميته أن الأرض انبسطت لهم دون مراعاة لمسّ ذيل المارد الأميركي، ولكنه وقع في سوء التقدير والتقطته طائرة مسيرة على حين غرّة.

سيكون اليمن واحدا من المواقع التي ستصلها تأثيرات التحولات الراهنة في المنطقة، لاسيما وأن ميليشيا الحوثي جزء من هياكل سليماني المرتهنة بأمره والمذعنة لسياساته، وقد اشترك زعماؤها في بروباغندا الثأر الإعلامي من "الشيطان الأكبر".

وعلى الحوثي أن يدرك ما يقاسيه رعاته اليوم في إيران، بتقلص دورها وتفسخ مشروعها بعد أن خنقتها العقوبات داخليا، وتعرضها للقصف الإسرائيلي أسبوعيا في سوريا، وانتفاضة الشعوب العربية ضدها في لبنان والعراق، وخسارة رموزها الميليشياوية بضغطة زر على درون متجولة.

إن إصرار الحوثي على الاستمرار في الانضواء تحت الأجندة الإيرانية والالتزام بتعليمات فيلق القدس، سيكون خيارا مدمرا وسيكلفه قرارا حاسما اتخذ لاستهداف قادة الميليشيا المعطلين للحل السياسي ومقراتهم ومصالحهم في اليمن، بفضل منظومات الرصد والاستهداف ذات الإمكانيات العالية التي تم إدخالها، ونشر أسراب طائرات مقاتلة لدول صديقة، ورادارات ودفاعات جوية وأسلحة حديثة، في إطار الحرب الشاملة لوقف عبث إيران والحد من سلوكها التخريبي، الذي بدأ الآن يتخذ مسارا جادا لا يمكن أن يتوقف.